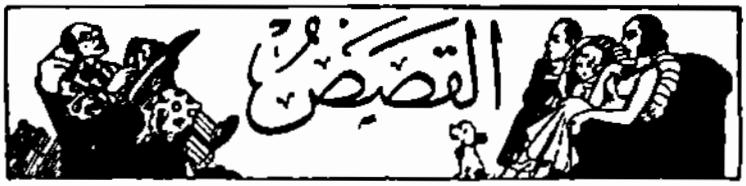

قصة واقعية:

من الأعمـــاق

للأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

إلى الأستاذ العداوى ، وكل من فى حياته قصة وفى أعماقه حب قديم وفى قلبه أشجان ، أهدى قصتى . ع . ع

صديق . . .

إنك أعرف الناس بمقدار حرصى على الإبقاء لهذه الذكرى طى الكتمان فى أعماق القلب الذى حملها سنوات؛ وما تثيره هذه الذكرى فى نفسى من آلام وأشجان تذهب بهنائى أياما بل شهورا لأنها تذكرنى بجريمة ارتكبتها جنيت فيها على قلب كبير، وتصور لى نفسى مذنبة آثمة ، فيهب ضميرى من رقاده فلا يزال وخزه كالحراب حتى يقيض الله لى من ينسينى هذه الذكرى بعض الوقت

ألست أنت الذى حاول مرارا أن ينتزع منى هذا السر الذى احتفظت به لنفسى وضننت به على أقرب الناس إلى وإليها ، فهل تظن أن البعد الذى بيننا يحل عقدة لسانى فأقص عليك قصتى التى من أجلها هجرت بلدى إلى غير رجعة ، وأفضى إليك بذات نفسى فأطلعك على جرح قلبى الدامى الذى تحمله الذكرى بين كأول عهده ؟

إن هذا الجرح هو الذى حال بينى وبين مشاركة الناس التمتع بهذا الجمال الذى وهبه الله عبـــاده . إننى لا آتى عن هذه الصحائف لأخط عليهـــا ما عجز عن انتزاعه الآخرون ولكن ... لا ! محال أن أبوح لك . لقد كثر إلحافك بعد أن افترقنا وأنا أريد أن أسكت هذا اللسان الذى يطاردنى فى حضوره وغيبته مهما بعدت بينى وبينه المسافات ، وكأنك تتعمد إيلامى لأفضى لك بسرى . وماذا على لو أخبرتك خبرها ؟ وأنا اليوم لا أخاف قالة السوء ولا أخشى أن يزاحمى عليها أحد

كان ذلك منذ أعوام سبعة يوم كنت معى والتقينا بصديقنا (م) بعد عودته من الغيبة التى طال أجلها بيننا، ثم التقيت به مرات ولم تكن أنت معنا . ودعانى يوما لزيارته فلبيت دعوته ولا أدرى لم دعانى وقد مضت سنوات على صداقتنا ولم يدع أحدنا الآخر إلى منزله ؟ ولا لماذا خرجت أنا عن مألوف عادتى فلبيت دعوته ؟ ذهبت فراعنى منزلهم الجميل ورياشه الفاخر وتلك الحديقة الزاهرة التى تحيط به

ولما استقر بى المقام جاءت شقيقته (ن) وهى إذ ذاك فى الثالثة عشرة من سنى حياتها ، وهى طالبــة فى المدرسة وقدمنى إليها قائلا : (أستاذك الذى سيقوم بإعطائك درس اللغة العربية) وأخذت بهذه المفاجأة إذ كنت أتحاشى دائما هذا النوع من الدروس مهما كانت سن الفتاة . بيد أن الموقف ألجم لسانى وصداقتنا حالت بينى وبين الاعــتراض ، كل ذلك كان سهلا بجانب نظرتها إلى ، نظرة فيها كل أنواع البراءة والدلال ؛ فوجدتنى أؤمن على قوله بغير شعور منى

ومدت يدها الصغيرة تصافحنى وعلى ثغرها ابتسامة جميلة خلت من أنواع المخاتلة والرياء ؛ لأنها بسمة تكسوها براءة الطفولة ؛ إذ كانت إلى هذه السن لا تزال طفلة فى كل أعمالها . فإذا قدرت سنى حياتها عند رؤيتها ما زدتها على عشر سنوات لضمور جسمها ووداعة خلقها وتعثر كلماتها فى النطق

وحددنا موعد الدرس ، وفى اليوم التالى ذهبت إلى منـزل صديق ، أو بالأحرى تلميذتى ، فوجدتها فى حجرتها الخاصة تنتظرنى فقضينا بعض الساعة فى ترتيب وتنظيم ، واتفقنا على الخطة التى تناسبها

صرت بعد ذلك أذهب إليها فى الموعد المحــدد . وعلى مر الأيام زال ما بها من تلعثم ، وكنت أرى منها غبطة وسرورا كلما رأتنى قادما ، فقد كانت تنتظرنى فى نافذة حجرتها المطلة على الحديقة فإذا رأتنى هبت تتلقانى بباب حجرتها . وبدأت ألحظ عليها أنها تبذل جهداً كبيراً لتعوقنى عن الخروج وتحتال لذلك الحيل، وأكثرها توجيه أسئلة كنت أجدنى مضطرا للاجابة عنها لأنى كنت أخشى أن تظن بى العجز . وكم من مرة أضاعت على فرصا كنت أنتظرها

بفارغ صبر . مر العام على خير وجوهه . وكانت أولى المتقدمات من زميلاتها وانتقلت من مرحلة إلى مرحلة أخرى

وظننت أن مهمتي قد انتهت؛ فانقطعت عنها ، وماذا بقي على؟ لقد أديت واجبي وقمت بما تقتضيه الصداقة

وبعد أيام من انقطاعي وكنت جالساً في حجرتي غارقاً بين أوراقي ، إذ طرق الباب طارق ، فلما أذنت له بالدخول وكنت أحسبه خادمي فلم أهتم بالأمر . ولما رفعت وجهي لأسأله ما يريد؛ رأيت أمامي صديقي (م) وتلميذتي فأخذت بهذه المفاجأة ؛ ومددت يدي مسلماً معتذراً. فلما تقدمت أسلم عليها مدت يدها وهي تصطنع الغضب ولكنها لم تستطع أن تخفي تلك الابتسامة الحلوة التي عودتني إياها كلما لقيتها

جلسنا في غرفتي، وكلما نظرت إليها ازدادت شفتاها انفراجاً، ولكنها سرعان ما كانت تستردها لتظهر بمظهر الغاضبة . ثم انفرجت شفتاها لا عن ابتسامة ولكن عن عتاب جميل لتقصيري عن زيارتهم بعد انتهاء العام الدراسي . ولقد كانت في إلقاء الأسئلة وتضييق الحلقة ماهرة كأنها نائب يحقق في حادثة يريد أن يصل إلى الجاني، وكلما هربت من طريق جاءتني من آخر . وقدمت لها من المعاذير مالا يحصى ولكنها لم تقبل منها واحدا وكانت كلما ألقيت إليها عذرا رأيتها تهز ذلك الرأس الصغير علامة عدم الارتياح، ولم تتركني حتى قطعت على نفسي عهدا باستئناف زيارتهم مرة أخرى وسيكون ذلك بعد غد . ذهبت إلى منزلها فإذا بي أفاجأ باستعداد لحفل . وتلقتني باسمة الثغر طلقة المحيا عليها سيماء من يجاوزن سنها ، وكان حفلا تزينه زهرات لم تتفتح مثلها وما زالت قلوبهن في الأكمام وتم عقد المدعوين ووقفت تقول كلمة صغيرة كما قالت فإذا هي تبدع وتجيد ، وفي نهاية كلمتها قدمتني للمدعوين على أن أتكلم كلمة فلم أسر لاقتراحها قدر ما سرتني كلمتها التي أشادت فيها بما بذلت معها من مجهود أهلها لهذا التقدم ؛ فكدت أعتذر لولا نظرتها إلى وما رأيته من عيون متجهة إلى شخصي

وقدمت لنا بعض زميلاتها أغنيات ورقصات أضفت على الحفل عنصر البهجة والسرور

وكانت جلستي بجانب فتاة وسيمة الوجه طلقة المحيا ذات شعر فاحم وقوام أهيف . . وعلى غير قصد مني لمست يدي ذراعها العاري فسرت رعشة غريبة في يدي فاضطربت ولحظت فتاتي ذلك إذ كانت نظراتها لا تفارقني ؛ فأسرعت تقدمها إلى ، فإذا هي ابنة عمها قد أتمت دراستها الجامعية هذا العام ، وحادثتني حديثاً شهيا خلب لبي واستولى على مشاعري ولم ينته الحفل حتى كنا على موعد للقاء في اليوم التالي . وتكرر لقاؤنا فازددت بها شغفا وهمت بها حبا ، وترامت الأخبار إلى تلميذتي بملاقتي بابنة عمها ، فكنت كلما زرتها شاهدت على وجهها مسحة من الهم والألم ، وكانت تتعمد ذكر ابنة عمها أمامي وتنظر إلى أثناء ذلك نظرات لم أعرف مغزاها إلا بعد فوات الأوان

وصحبتها يوماً إلى السينما وكنت على موعد مع ابنة عمها فاختارت المقعد الأوسط لتجلس بيننا فنفذت رغبتها ولكن فعلها آلم ابنة عمها ؛ فعتبت على مصاحبتي لهذه الصغيرة وإذعاني لرغبتها ، فقد كانت كل منهما تتربص بالأخرى ولكنها تتحاشى لقاءها ، عرفت حبيبتي أن ابنة عمها تحبني ولكنها لم تذكر لي شيئا عن ذلك

وهالني ما طرأ على تلميذتي من تغير ملحوظ فأصبحت تؤثر الوحدة وتتحاشى الناس . وتجلس معي صامتة واجمة ، وبدأت عيناها تذبلان ونظراتها تتكسر ؛ فحاولت أن أعرف سر ذلك منها فلم أفلح . وكانت كلما خرجت معي بمفردها — لأنها كانت ترفض دعوتي إذا علمت أن ابنة عمها سترافقنا — تسر لذلك ويذهب عنها بعض حزنها ، وصارت لا تذكر غريمتها أمامي كما كانت تفعل قبل اليوم

وذهبت لأطلب يد ابنة عمها ! فلما تم كل شيء بعثت من يعلن الخبر في بيتها وكانت ترى من وراء ذلك إلى غرض في نفسها . ولما ذهبت في اليوم التالي إلى صديقي اذ كنا على اتفاق لنذهب الى إحدى الحفلات ، لم أجد تلميذتي تنتظرني كما هو مألوف . وهنأني الجميع ولكنها لم تحضر ، فسألت عنها فعجب الجميع لغيابها ، وبحثوا عنها حتى وجدوها ؛ فلما جاءت رأيتها قد انكمشت في نفسها .

وسألتها عن عدم استعدادها للذهاب معنا فاعتذرت بتعب تحسه . وحاولت كثيراً فلم توافق . وفي اليوم التالي علمت بأنها مريضة فزرتها وواظبت على زيارتها كل يوم ، غير أن حالها كان يسير من سيء الى أسوأ . وكانت تسرع خطواتها الى العالم الآخر فأسف على البيت الحزن والكآبة . وفي أحد الأيام ذهبت لعيادتها فانتهزت فرصة خلو حجرتها من الآخرين وسلمتني

غلافا. فلما همت بفضه أشارت الى إشارة فهمت منها أنها لا ترغب فى ذلك. ولما صرت خارج الدار فضضت الغلاف فوجدت صورتها بين أوراقه وتصفحت كتابها فاذا فيه ...

(حبيبى لقد أحببتك وأنت لا تدرى، وان كنت قد بادلتنى هذا الحب ، غير أنك كنت تستخف به لأنه فى نظرك حب طفلة ومادريت أن لهذه الطفلة قلبا . .

(وكم ندمت على أنى كنت سببا فى تعرفك بتلك التى سلبتك منى واستولت عليك من دونى ، وكثيراً ما حدثتنى نفسى أن أسحقها كما سحقت قلبى وأحطم حياتها كما حطمت حياتى . ولكنى كنت أخشى أن يكدر فعلى هذا صفو حياتك ويسبب لك الشقاء والآلام .

(لقد كان أسعد يوم فى حياتك هو أشقى أيام حياتى ، فبينما أنت تنعم بقرب حبيبتك وقد فاضت منك كأس السعادة . كنت أنا أقاسى آلاما تهد الجبال وأتجرع كأس الخيبة والحرمان غارقة فى بحر الحب الذى حطم أعصابى . بينما أنت تضحك ملء فيك ، كنت أنا أبكى مصير حبى وأندب ذكرياتى الجميلة وأشيع آمالى الواسعة ، فى حجرتى المظلمة التى تذكرنى كل قطعة فيها بحبى ، وبأنك كنت فى يوم من الأيام لى وحدى ، فكم تمتعت فيها بالجلوس إليك لا يشاركنى فيك أحد . فى هذه الحجرة رحت أشكو منك وكنت قبل اليوم أشكو لك . فى هذه الحجرة سعدت بأحلامى الجميلة واليوم أذرف فيها الدمع على أطلال سعادتى الذاهبة .

(لقد عزمت كثيراً بأن أكتب اليك بما ألاقى ، ولكن كان الوقت قد مضى والفرصة ضاعت . وهل كنت تصغى لكلماتى وأنا فى نظرك لا أعدو طفلتك الصغيرة ؟

(أتذكر يوم لقيتنى فى حجرتى منفردة أضع رأسى بين يدى وعلامات الألم تبدو على وجهى فقلت لى: لقد كبرت وغدوت تفكرين كما يفكر الكبار . ثم جلست تربت على كتفى وتمسح بيدك شعرى ، وأنت تسألنى عن سبب همى ، فكدت أجثو على ركبتى وأفتح قلبى بين يديك وأريق أمامك كل ما كنت أكظمه من الحنان وما يكربنى من الحب ، ويملأ قلبى من المواطف .

(لقد أصبح كل شىء فى هذا الوجود مصدره عذابى فكرهت كل شىء وأحسست بالبغض لهذا العالم ومن فيه فلم أعد أطيق رؤية أحد .

(لقد كان حبى لك كبيرا وكانت خيبته أكبر . فلم أقدر على تحمل ثقلهما. فاذا طوانى الموت فابك ياحبيبى على حبى لك لأنه سبيلى ولأنه قد توسد الثرى وكان يحلم بتوسد ذراعك ولأنه ضمه القبر وكان الواجب أن تضمه فى أحضانك ، ولفه الكفن وكان حقيقا أن يلفه وإياك فراش واحد ، واحتوته صحراء مقفرة وكانت أمنيته أن يحتويه عش تكون أنت سيده .

(إن تعلق بالحياة لا لأن نفسى عزيزة على ولكن للحب الذى تكنه لك. فاذا مت فلا تبك على لأن بكاءك يؤلمنى..ولا تحزن فان حزنك يشقينى.. ولكن اذكرنى كلما خلوت إلى نفسك) .

فى هذا الأسلوب الذى لا غموض فيه ولا تكلف فيه كتبت إلى خطابها وهو خطاب طويل ، فما انتهيت من قراءته حتى أحسست الدمع يتساقط من عينى ، وأن الأرض تدور بى، ولم أعرف أين أنا سائر ، وكدت أعود لأضمها بين ذراعى وأغمر وجهها بالقبل لأخفف عنها وطأة آلامها ولكنى لم أستطع إذ كانت قواى قد خارت ونفسى قد تضعضعت فجلست على أقرب مقهى وجدته ، وما شعرت إلا والتادل ينبهنى إلى موعد الانتهاء من سهرته. فقمت أهيم على وجهى طيلة الليل وأنا حائر ماذا أفعل وقد قطعت مع عمها وعدا بالزواج من ابنته . لو كان الحب فقط الذى أكنه لابنة عمها لكتمت أنفاسه وتخلصت منه..لكن كيف أتخلص من وعدى وبماذا لأعود إلى تلك التى أحببتنى فى صمت وتعذبت فى سبيلى كل هذا العذاب وأنا سادر عنها غافل عن أشجانها وآلامها ، فذبلت كما تذبل الزهرة قبل تفتحها لأنها حرمت الساقى الذى يتعهدها

وفى اليوم التالى بكرت فى الصباح وقد بيت فى نفسى أمرا . وقبل أن أصل إلى الدار سكت أذنى أصوات النساء ينتدبنها. فلما ولجت الباب رأيت خادمها حزينا . فلما سألته أخبرنى أن شريانا قد انفجر منها إثر صدمة نفسية لم تستطع لها احتمالاً . هكذا قال الطبيب . يا رحمتاه لها

فعلمت أنى قد قتلتها وأنا عنها غافل

وبعد أسبوع كنت أستقل القطار مبتعدا عن معهد ذكرياتى المؤلمة ؛ ولكنها ما زالت تطاردنى كلما وقعت عينى على صورتها التى لا تفارقنى

عبد الرحمن عبد الحافظ